فؤاد ابراهيم عباس

الفولكلور واثره في المحافظة على الشخصية القومية للشعب العربي الفلسطيني

قبل تناول هذا الموضوع بالبحث المستفيض ، لا بد من الاشارة السريعة الى بعض متعلقات الشخصية القومية الفلسطينية ، او الى بعض متعلقات الفولكلور نفسه .

من الناحية الاولى ، لا بد من النظر الى طبيعة ما اصاب الشعب العربي الفلسطيني من هزات اجتماعية قلعت حجما كبيرا منهوحاولت غرسه في ارض غير ارضه منذ عام ١٩٤٨ ، ولكنها ارتطمت بقدرة هذا الشعب العجيبة على الصمود والبقاء ، وعلى هذه القدرةالعتيدة في الابقاء على السمات الاجتماعية لشخصيته ومواصفات هذه الشخصية .

ومن الناحية الثانية فان الحس بالميراث الشعبي الفلسطيني يختلف عن الحس بالميراث الشعبي لاية امة اخرى لم تنكب في وطنها ولم تحرم من ارضها ، فالشعوب المستقرة تعثر في بلادها علىدوائر الفنون الشعبية ، وفي جامعاتها كراس ومراكز للفولكلور ، وفي الساحات وشوارع الملاهي تؤثر اليافطات المتلالئة الانوار على مسارح التمثيل الشعبي ومسارح العرايس ، كما تؤثر على فرقة الرقص الشعبي والمعارض الجماعية والفردية للفنون الشعبية التشكيلية ، وفي المحلات التجارية الكبرى اجنحة خاصة للطرائف الشعبية ، وهناك محلات خاصة اخرى تبيع هذه الطرائف ، هذا بالاضافة الى الصحف والمجلات والكتب والنشرات المختصة بالتراث الشعبي التي اصبحت لونا من غذاء الفكر لا يستغنى عنه . وفي هذا المجال الثقافي الخصيب تتقدم برامج الاذاعة والتلفزيون فتغطي اهتماماتها قطاعات الفنون الشعبية القولية والحركية والتشكيلية ، بما تعرضه من برامج ولقاءات واحاديث ولقطات ، واصبحت متعة ما بعدها من متعة ان يضع المرء في برنامجه ، وهو في مدينة عامرة ، زيارة ما يسمى عادة بالمتحف الفولكلوري فيها ليشاهد مفروضات شعبية في مجموعة غرف وساحات واركان تنطق بما يمثل روح اهلها ويكشف عن جوهرهم الانساني ، هذا بما يمكن حسه عن الفولكلور لدى شعب مستقر على ارضه ، ولكن الحس بالفولكلور الفلسطيني يختلف كل الاختلاف ، فنحن نساق الى حيث الافراد الفلسطينيون والى حيث التجمعات الفلسطينية لنقتنص ميراث هذا الشعب ، وذلك منذ ان حاولت الرياح العنيفة اقتلاع التجمعات الفلسطينية حتى بعد هجرة او هجرتين او اكثر قاسية اشد القسوة فرضت على افراد هذا الشعب في ظروف مخطط امبريالي صهيوني عنيف وشرس .

وهكذا كان واضحا ان من المترتب على امة العرب الاخذ بيد الشعب العربي الفلسطيني ليستجمع مقدرته على احياء تراثه الشعبي والابقاء على معالمه ، وهذا يندرج في مجالات خطة التحرير والعودة ، وذلك ما دمنا نعترف بان ميراث الشعب هو من القوى الدافعة للابقاء عليه ، ومهمة العربي والعربي الفلسطيني مزدوجة بهذا الشأن . فالحفاظ على التراث هو جانب هام والرد على المخطط الصهيوني الذي يستهدف محو هذا التراث هو جانب هام اخر ، والجانبان كلاهما في دائرة المحافظة على الشخصية القومية للشعب العربي الفلسطيني .

ويقوم مخطط العدو الصهيوني اساسا على تهديد الوطن المحتل ، فكما يسيء عدو الامة العربية وعدو امجادها وتراثها الىالمقدسات ويعتدي على حرماتها فيحولها الى معابد يهودية ويحفر من حولها لازالة معالمها العربية ، فانه يتغلغل الى اعماق التراث الشعبي العربي الفلسطيني فيطمس ما يستطيع طمسه منه ، ويدعي لنفسه ما يمكن ان يدعيه منه ، ويباعد بين الشعب وارضه ام التراث ، ويحاول ان يقلل من تماسك الاسرة والمجتمع الفلسطيني اساس هذا التراث وقوامه . ولكن العدو يفشل فيما يخطط ويبوء بالخسران فيعدوانه وتقهره عزيمة شعب خلاق عنيد اشتهر بصموده وعرف بديناميكيته ، فالهجرة من الوطن والتشريد عن الارض لم تفلح كلها من النيل من تمسك الفلسطيني بمبدأ العودة ، ولم تنجح في تفكيك المجتمع الفلسطيني او محو السمة الفلسطينية من الاسرة الفلسطينية ،وعلى العكس تماما فقد ظل الفلسطينيون فلسطينيين في كل بلد يقيمون فيه ، بميزهم طابعهم الذي لا يمكن ان تمحوه الايام .

ان العدو الصهيوني في عدوانه على الارث الشعبي الفلسطيني يسير في خطين : الخط الاول خاص بالتراث اليهودي القديم ،والخط الثاني خاص بما يدعيه العدو تراثا صهيونيا حديثا يعكس حضارة كيانه المسمى اسرائيل .

وفي مجال الخط الاول يدعي العدو ان حضارة اليهود او العبرانيين القدامى هي مرتكز كل الحضارات التي ظهرت فيفلسطين، وكل ما عداها يذوب فيها ، وفي الاطار الثاني تظهر فرق العدو الفولكلورية في اوربا بالزي الشعبي العربي الفلسطيني مدعية انها

لون اسرائيلي كما تحمل كتب ونشرات الفولكلور الصهيونية المزيفة كل ما يندرج من سمات فولكلورية للمزارات والاثار العربية في فلسطين المحتلةمدعية انها اسرائيلية بحتة .

وفيما يختص بالخط الصهيوني الاول المتعلق بالتراث اليهودي القديم فلا بد من ذكر ملاحظتين :

اولا : ان العهد القديم من الكتاب المقدس قد روى قصص العبرانيين جنبا الى جنبمع قصص الكنعانيين العرب كما في سفر المزامير ، او سفر التكوين ، وسفر الملوك ، وسفر الايام .. الخ، وقد نقل اليهود التراثين مختلطين فيما سموه (تراث اليهود) اي ان اليهود خلطوا من خلال هذا المنطق بين التراثين اليهودي والكنعاني الفلسطيني ، محاولين اعتبار التراث الكنعاني جزءا من تراثهم ، وهذا لا مبرر علميا له والعكس يمكن ان يكون له مبرر ، اذ ان الكنعانيين كانوا في ارض كنعان قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد اما العبرانيون اليهود فقد عبروا ارض كنعان بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

ثانيا : ان تقارب بعض الاسماء التي وردت في الاساطير الكنعانية والعبرانية اوجد مجالا لمحاولة من جانب الصهيونيين تهدف الى امتصاص الكلمات الكنعانية من الارث الاسطوري لمجرد تشابه هذه الكلمات مع الكلمات العبرية ، وبالتالي محاولة امتصاص الاساطير الكنعانية للايهام بان كل تراث فلسطين القديم انما هو تراث يهودي ، ونحن مطالبون عربيا وفلسطينيا بتحطيم هذهالاكذوبة الكبرى عن طريق الكشف عن الحقائق .

وفيما يختص بالخط الصهيوني الثاني المتعلق بتهويد الفولكلور الفلسطيني ومحاولة صرف الاهتمام الفلسطيني عن التراث فان الصهيونيين قد اتيحت لهم ، وقد احتلوا الوطن الفلسطينيباكمله، التعرف على صناعة الازياء والملابس الفلسطينية العربية كالفستان الذي ينتمي الى بيت لحم او بيت جالا او رام الله او المجدل او عسقلان او بيت صفافا او غيرها من مدن وقرى فلسطين ، في خيوطه او طريقة حياكته وتطريزه . وعلى سبيل المثال فانهم على علم بان ازياء بيت لحم ذهبية الخيط ومطرزه على طريقة اللف وان يغلب على التطريز التلحمي خرزة الصليب اي يكون التطريز على هيئة صلبان منذ اجيال عديدة ، ومع انه هو طابع مميز لما تصنعه المرأة التلحمية بيديها الا ان تقليد ذلك ليس معجزة كما ان الحصول عليه بالذات من صنع تلحمي في الوطن المحتل ليس معجزة ايضا . وما ينطبق على الثوب التلحمي ينطبق ايضا على الثوب المجدلاوي . وكذلك فان انصهاينة ضمن مسح الاثار والمأثورات الشعبية الفلسطينية كالازارات بانواعها المختلفة وضمن رصد الفنون الشعبية الفلسطينية كالرقص الشعبي والالحان الشعبية عمدوا الى سرقة هذه الفنون لتسريبها الى فرق فنون شعبية اسرائيلية استعراضية يعرض فنونها في اوربا وامريكا ، وذلك بهدف السطو على المخلفات الفلسطينية او الاساءة الى بعضها وطمس الاخر او تشويهه او النيل منه .

وازاء هذا كله لا بد من فضح المحاولات الصهيونية اعلاميا في الخارج ضمن خطة اعلام عربية وفلسطينية ، واشراك الدول الصديقة في عملية الكشف اولا بأول عن الحقيقة والضرب على يد العدو في كل محاولة سرقة او تشويه او طمس للتراث العربي الفلسطيني ، ومن ناحية اخرى لا بد من خطوات ايجابية فلسطينية لاحياء الفولكلور العربي الفلسطيني اعلاميا في الحفاظ على الشخصية القومية الفلسطينية وحمايتها ، وهذا يكون بجمع هذا التراث قبل ان تنقرض منه الجذور والاصول والمعالم بالرجوع الى الكهول والشيوخ الثقاة قبل ان ينقرض جيلهم ، وبتسجيل ما يخاف على ضياعه ، والترويج له ونشره على اكبر مساحة ممكنة من قطاعات الشعب العربي الفلسطيني ، في المهاجر ، وفي المخيمات ، وفي معسكرات الفدائيين وبين افراد جيش التحرير الفلسطيني وفي التجمعات الفلسطينية وفي كل قطر عربي ، والتذكير به والتنبيه عليه داخل الوطن المحتل واقامة فرق الفنون الشعبية الفلسطينية ،ومراكز ومعارض الفولكلور،واقامة الندوات ونشر الابحاث والدراسات والكتب المعنية بذلك ، واعطاء الفرصة كاملة للافراد ليعشب ينبوع الافراد في الالوان الفولكلورية المختلفة في بحر الشعب العربي الفلسطيني الهادر ، الا وهو الثورة الفلسطينية .

ومن حسن الحظ ان بعض المبادراتالفلسطينيةوالعربية بشكل عام قد اخذت طريقها الجدي في هذه السبل وان كانت في الحقيقة غير كافية تماما ، وكمثل على ذلك مافاصتبه مراكز الدراسات الفلسطينية خارج وداخل الوطن المحتل (١) ومراكز الدراسات العربية ومراكز الفولكلور بهذا الصدد ، وفي الاطار العملي لم تحجم حتى الفتيات الفلسطينيات المثقفات وذوات العرق الطيب وكذا الاطفال عن الانخراط في فرق الفنون الشعبية الفلسطينية . فقد لوحظ كظاهرة ملموسة ان الرقص في الفرق الشعبية الحديثةليس مكروها عند الفتيات حتى ضمن اكثر العائلات الفلسطينية تمسكا بالتقاليد ، ويرجع سبب ذلك الى جذور الرقص الفردي والرقص الجماعي لدى الفتاة الفلسطينية ، فالمراة او البنت ترقص منفردة وترقص رقصا جماعيا ايضا مع اترابها ورفيقاتها كما يرقص الرجل، واحيانا تحمل الراقصة المنفردة على راسها وهي ترقص جرة او شمعدانا امعانا في اثبات المهارة في الرقص ، والجرة هي الاكثر شيوعا ، وغالبا ما يكون الرقص المنفرد في الاعراس والافراح ، فيتناوب الرقص الاتراب والرفيقات ، وليس مكروها الا الرقص الفردي المحترف الذي تمتهنه الغواني المعروفات (بالجناكي) وكرهه لدى الشعب يصل الى حد اعتباره عارا ومذلة .

دلالات الفولكلور الفلسطيني على الشخصية القومية للشعب العربي الفلسطيني

يعبر الفولكلور الفلسطيني عن الشخصية الفلسطينية ،انسانيتها وعروبتها وثقتها بالتحرير والعودة ، وهو مطلب قومي ووطني ،كما يعبر عن امالها واهدافها ضمن ثورة الانسان على الصهيونية العنصرية والعدوان ، ونحن هنا نورد بعض النماذج للتدليل على ذلك .

مثل من الرقص الشعبي (الدبكة) :

ترقص الدبكة في العادة على انغام موسيقية كانغام (الشبابة) في الغالب وتصاحب الانغام الموسيقية الحان غنائية هي الحان(دلعونا) في الغالب وينزل الساحة في (الدبكة) من ٥ ـ ٧ شبان وربما اكثر ، يتقدمهم القائد ويعرف (باللواح) سمي كذلك لانه خلال الرقصة يلوح (بمحرمته) اي بمنديله ويستمر في حركته في الاتجاه الدائري مع جماعة الراقصين على انغام الموسيقى والغناء . واذا امعنا النظر في الحركات التي تشملها رقصة الدبكة نجدها تتالف من خمسة اجزاء رئيسية :

(١) القفز الى اعلى .
(٢) دق الارض بالاقدام .
(٣) التكاتف اي يمسك كل فرد من الراقصين بزمام الاخر .
(٤) الدوران البطيء او السريع .
(٥) اية اصوات او حركات وجدية مرافقة للرقصة .

اما القفز الى اعلى فجذوره البدائية هي الرمز الى نمو الزرع وارتفاعه ، وارجاع هذه الحركات العلوية الى النمو وارتفاع الزرع انما يعود في الاساس الى انه قد شاع في ديانة الكنعانيين القدماء ، وهم من اجداد شعب فلسطين ، عبادة قوى الطبيعة المنتجة وقوى النمو والاكثار مما يعرف في العادة بين المجتمعات الزراعية ، وكان كبير الهتهم (ايل) (٢) يقيم عند منابع الانهار ، وكان ابن الاله (بعل) يرمز الى الخصب ويعتلي السحاب، وقد تطور هذا الرمز بالنسبة الى القفزالى اعلى في رقصة الدبكة فاصبح يعني علو الشعب وعلو الامة وعلو الوطن .

اما دق الارض بالاقدام فجذوره البدائية هي محاولة طرد القوى الشريرة وقد تطور هذا الرمز ، فاصبح يشير الى قوة الشعب وقوة الامة ، وهو الان قد امعن في التطور فاصبح يعني الثقة بحتمية العودة الى فلسطين وتحريرها من شرور الصهيونية .

والجزء الرئيسي الثالث من الرقصة وهو ان يمسك كل فرد من مجموعة الراقصين بزمام الاخر ففيه دلالة على التعاضدوالتكاتف والمساندة وان يداله مع الجماعة وهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

والدوران البطيء او السريع اذ كان يرمز من البداية الى الدورة الزراعية ، والى دوران الفصول والسنين والاشهر والايامواالساعات واللحظات ، فانه تطور في دلالته ليعني استمرار الكفاح من اجل مستقبل الشعب والامة ، فهو ديناميكية وهو مسيرة ، وهو ثورة حتى النصر .

اما اية حركات واصوات وجدية اخرى من الرقصة فهي دينية الجذور وتدرجت لتبقى دينية او اجتماعية او وطنية .

مثل اخر من الرقص الشعبي (صمدة العروسة) :

تدخل النشوة قلوب النساء وهن يرقصن رقصة (صمدة العروسة) اذا سمعن الرجال ينشدون على مسمع منهن :

يا بدرية يا بدرية	حني عليا حني عليا
وعروبتنا بدرية	غالية عليكي وغالية عليا

ورقصة (صمدة العروسة) معروفة لدى الفلاحات خاصة في جنوبي فلسطين حيث يقف صف من النساء والفتيات ، وامامه صف اخر منهن ، ويتقدم الصف الاول في اتجاه الصف الثاني بخطى راقصة على ايقاع من الغناء يقول : « فرشوا الحارة ريحاني فرشوا الحارة ريحاني » (لغة من الريحان) واعزموا كل الجيران ، فرشوا الحارة ريحان اخضر واعزموا الزابط (الضابط) مع العسكر (وفي هذا مغزى احترام الفرد او النفر او الانسان) فرشوا الحارة برايز (جمع بريزة وهي عملة فضية) واعزموا كل العجائز ، ونثر البرايز في طريق العروسين تيمنا وبركة ودعوة العجايز رمز الى احترام الكبار .

مثل من التاريخ :

عمد صلاح الدين الايوبي طيب الله ثراه الى تحميل الشعب الفلسطيني امانة الحفاظ على الفولكلور القومي منذ ان ندم على هدم (عسقلان) ومن دلالة ذلك ما ذكره المعاصرون لصلاح الدين من المؤرخين من انه آمن بان الشعب كان يمكن ان يهبا ويعد اعدادا جهاديا ويتحمل عبء الدفاع عن الوطن بل حتى الهجوم ، وانه لو كان هناك اعتناء بعسقلان بعد فتحها لما تطرق اليها خطر (٣)

ونحن نورد هنا ما تعلق بندم صلاح الدين لان فيه عنصرا من اسباب الدعوة الى تنظيم الاعداد من اجل القتال وهو احد عوامل اقامة المواسم الشعبية في فلسطين التي يحتفل فيها من الاصل بهدف تجهيز الشباب العربي من خلالها لحرب الاعداد الطويلة الامد ، وهكذا كانت فترة الاعداد للحرب بعد الهدنة التي ابرمها صلاح الدين مع الصليبيين والتي حملت شعار (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) مضرب الامثال ، وقد رافق هذه المواسم الشعبية الوان من الفولكلور التي بقيت محفوظة متوارثة مثل النشيد الديني الذي تطور فيها بعد ذلك الى مفهوم النشيد القومي ، وكذلك الشعر الشعبي ، والاغنية الشعبية والموسيقى الدينية والالعاب الشعبية كالباريات بالسيوف وسباق الخيل وكذلك الرقص الشعبي وغير ذلك .(٤)

وفي عهد متاخر بدانا نسمع اناشيد قومية خالصة في هذه المواسم الشعبية ، وهي وان كانت غير فولكلورية في الاصل الا ان ترددها في المواسم الشعبية وخروجها من حناجر الجماهير يجعلنا نعتبرها فولكلورية ومنها الذي اوله :

ايها العرب الكرام	الى متى انتم نيام
قوموا الى الموت الزؤام	وامشوا له مشي الاسود

ومنها الذي اوله :

سيروا للامجاد طرا سيروا للحرب
واستعيدوا بالمواضي دولة العرب

ومنها الذي اوله :

بلاد العرب اوطاني	من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن	الى مصر فتطوان

والتي فيها :

لسان الضاد يجمعنا	بقحطان وعدنان

مثل من الشعر الشعبي :

من خصائص الشعر الشعبي الفلسطيني انه باديء الامر مزج بين الاسس القومية العربية والاسس الدينية ثم ابرز الاسس القومية منفصلة بعد ذلك ، ودللت اغراضه على ذلك ، ومنها الفخر والحماسة ومعايشة القضية الفلسطينية ، والتعبير عن قصص البطولة النضالية ، وكتابة الاحداث والمعارك بالشعر (٥) ، كان ذلك بارزا زمن الانتداب البريطاني كقول الشاعر الشعبي نوح ابراهيم من الزجل :

تحيا الامة العربية	من اسلام ومسيحية
هبوا يا اهل الحمية	واحموا الوطن واحموا الدين

ومن ذلك ما قاله ايضا نوح ابراهيم في رثاء المجاهد الكبير الشيخ عزالدين القسام :

عزالدين يا خسارتك	رحت فداء لامتك
ميين بينكر شهامتك	يا زعيم المجاهدين

وجاءت ثورة ١٩٦٥ تكرس اسسا راسخة من النضال وتضيء شموعا على الطريق ، قال الشاعر الفولكلوري صلاح الحسيني :

دم الشهيد يا نشيد
بيدوي فوق التلال

دم الشهيـــد
موال فـــدا
هـــز الصـــدا
مـــوال
فوق الجبـــل وفي كـــل بيـــت
بينقـــال
القمح ما بيـدي سبـــل
الا ان داب
الا ان نزف دمـــــه
وغـاب فـي التـراب

مثل من الغناء الشعبي :

غالبا ما تغنى الحان (دلعونا) و (مشعـل وزريف الطول) مـع الاهازيج والقصائد الوطنية ، ومن هنـا يستجيب الشعـر الشعبـي المطاوع لهذه الالحان وتنسج قصص شعبيـة حول اصول هذه الالحان.

وفي رقصة (السحجه) يقف المغنون الراقصون صفين مـع ضرب الاقدام على الارض وهي رقصة واغنيـة بالتداخل ومما يقال فيها :

هبت النار في راس الخروبـة — يا ابوفلان يا حامي العروبة
هبت النار فـي راس القطنـا — يا ابو فلان يا حامي وطنا

وفي (العتابى) مع (الميجينا) (٦) ممـا ساير الكفاح ضدالانتداب البريطاني والصهيونية ، ومنه مـا تطور ايضا ليساير حالة التشرد التي عاشهـا وعانى منهـا الشعب العربي في فلسطين بعد نكبة عام ١٩٤٨ والايمـان بحتمية الخلاص والتحرير :

عدانـا لا تقولـوا حنـا انهفينـا
انتـو الـزرع واحنـــا المنجلينـا
نحصدكـو علـى طـــول المـــدى

مثل من قراءة وروايـة السير الشعبية :

اشهـــر هذه السير تغريبة بني هلال ، الزير سالم ، عنترةبن شداد ، فيروز شاه ، حمزة البهلوان ، سيفبنذييزن ، والاميرةذات الهمة . وقد نسج الفلسطينيون على منوالهـا قصصا شعبيةفلسطينية مثل سيـرة (ابي جلـــدة والعرميط) وهمـا شخصيتان فلسطينيتان حقيقيتان ظهرتـا في الثلاثينيات ، كانـا قد اعلنـا العصيان على سلطة الانتداب الغاشمة في فلسطين ، وتحصنا في المغاور والكهوف فـي المناطق الجبلية من البلاد ، ومارسا الاغارات المفاجئة بين وقت وآخر ضد الانجليز والصهاينة كما كانا ينصبان الكمائن على الطريق فيقـع فيها الجنود البريطانيـون والصهاينة ، وتحدثت عـن مغامراتهمـا صحف فلسطين اليوميـة ، مثل : (الدفـــاع) و (فلسطيـن) و (الجـامعة الاسلامية) ، و (الجامعة العربية) ـ تاركـة في مخيلات القراء جوا دراميـا رائعا عن مغامرات ابي جلدة والعرميط ، ولكـن انتهى امر الثائريـن كليهمـا بعـد ان حاصرهمـا الجيش البريطاني في نهايـة المطـاف .

ولقد غذى الادب الشعبي في مناهله المتعددة ومنهـا منهل السير الشعبيـة قرائح شعراء وكتاب الثورة الفلسطينية فولكلوريين ام غير فولكلوريين ، وكمثل على الاثر والتاثير في هذا المجال المقدمـــة الفولكلوريـة المهلهلية التي قدمهـا الشاعـر الفلسطيني (خالد ابو خالد) احد شعراء الثورة المعاصريـن لقصيدة لامعـة لـه غيـــر فولكلورية ، والمقدمـة تغلغلت في اعماق قصيدته وبين ابياتها ، خالعة على القصيدة كلهـا جمالا فنيـا يتجاوب مع خلع (جليلة) بنفوذهـــا (المهلهل) ليصبح صعلوكـا ، ولترتمي (جليلة) في احضان (الرعيني) الغازي وهـو ابن اخت (التبع حسان) وابن اخت (البسوس) وذلك بهدف تثبيت (جساس) ملكـا على العرب .

ويطبع (خالد ابو خالد) القصـة بالخاتم الفلسطيني ، خاتـم الثورة الفلسطينية ، المهلهل قاتل . قاتلهم ، كمـا قاتل (بـــرجيس الصليبي) حليفهم وحقق في قتالـه الطويل ضدهم مجموعة انتصارات، والحق بجساس اكثر من هزيمة ، لكـن جساسا لـم يمت كما يروى على يـد ابن كليب ، بل ظل حيا يلاحق المهلهل اينمـا ذهب حتى انه كلف عبدين من عبيده باغتياله في غفلة ، وبرغم الجراح الخطيرة التي اصيب بهـا المهلهل الا انه نجـا من الموت ، لكنه ظل صعلوكا مطاردا من جساس . ويمضي خالد ابو خالد متاثرا ومؤثرا في سيرة المهلهل فيروي ان مـا ورد من داخل وخارج فلسطين يؤكـد ان جساسا مـا زال متحالفـا مع الغزاة وانه شخصيا سيواصل ملاحقة المهلهـــل بهدف اغتيالـه .

وهكذا يبدو الفولكلور موحيا قويا في دائرة الشعر العادي كمـا كـان في الاصل موحيـا في وجدان الشعب في دائرة الفولكلـور . والقصيدة من رائعـات خالد ابو خالد ويقول في بدايتها :

توقف ايهـا الراوي
ومعـــذرة
فلست اميرهـــا
لكنني الصعلـوك
من خلعته مثل الفرد عاهرة القبيلـة
. . . . . .
تخاطفوا شرفـــي
واشلائـــي
من اكلوا على الساحات من رئتـي
ومن باعوا لبرجيس الصليبي انتصاراتي
دمـــي
ومرارتـــي
وتغافلـوا عنـــي
انـا حامي الحمـــى
. . . . . .
الى النسيـان خلونـي
وباعونـــي
بلا عينيـــن
(بمرج ابن عـامر) كنت سنبلـة
واحجـــارا
وزيتونـــا
وسلكـا شائكـا
طفـــلا
وبئرا طافحـــا بالـدم
شيخـــا
. . . . . .
اغير على مواقعهم
واطعم حربتي لحمـا واطفالـي
واروي ناقتـي من عز (راس العين)
ميدانـي فسيـح
واسـع الارجـاء
يسبقني رصـاص
يسبق الكلمـات

شاهدتي انا ـ القسام ـ
شاهدتـــي
على السهل الذي يمتد من (يعبد)
والشجعان عند الصبح
هناك وصلت
قاتلنا الرعينـي
فانبرى (الجساس) خلف ظهورنا
يجتاح خابية اليتامى
يخلط الملح بزيت الدار
بالبسط العتيقة
والعليق
وبالوجوه السمر
تختال البسوس (٧)

ونقلب سيرة اخرى من السير الشعبية كنموذج ما دمنا نعترف بان السير الشعبية هي قاسم مشترك فولكلوري متداول لدى الامة العربية جمعاء ومنها شعب فلسطين في اطار الفولكلور القومي. سيرة عنترة بن شداد ـ على سبيل المثال وهي تحكي احداثا وقعت في الجزيرة العربية وما يناخمها . ومن الطبيعي ان تكون فلسطين هي واحدة من المواضع المناخمه ، وهي قصة الحريه ونسر العبودية متمثلا ذلك بقول عنترة :

وما اسمو بلون الجلد يوما ولكن بالشجاعة والكلام

ومن ارتباط سيرة عنترة بفلسطين موقف الفارس عنترة من الفارس الفلسطيني (مقرى الوحش) وتقول السيرة ان عنترة اسر (مقرى الوحش) على حدود الشام اثي في صحراء النقب الجنوبية المتاخمة للعقبة ، واصبح مقرى الوحش عتيق سيف عنترة ولكنه اصبح صديقا له بعد ذلك وحليفا له في غزواته ، وعندما مات مقرى الوحش رعى عنترة ابنه وترك له مخصص ابيه .

وفي وقت متاخر طور الفلسطيني من روح سيرة عنترة ، الثورة الفلسطينية تعلقت بجذور الحرية وعاشت معها ، والشاعر الفلسطيني عندما ثار ضد الاستعمار والصهيونية صور من جذور عنترة الحب والحرب اذ مزج بين دفاعه عن ارضه ووطنه ودفاعه عن حبيبته ، يقول محمود درويش :

اذا خسرت الصديق فقدت طعم السنابل
وان فقدت الحديقة ضيعت عطر الجداول
وضاع حلم الحقيقة

عن الورود ادافع سوفا الى شفتيك
ومن تراب الشوارع خوفا على قدميك
وعن دفاعي ادافع

وفي مرحلة اكثر تطورا فان الشاعر الفلسطيني يجد رفيقته معه تشاركه الكفاح المسلح (٨) .

مثل من الحكاية الشعبية الفلسطينية :

ان محصلة الارث الفلسطيني الخاص بالحكاية الشعبية الفلسطينية هو على جانب كبير من الخصب والوفرة والتداول ،حتى بعد نكبة ١٩٤٨ فلا تزال الجدة العجوز تروي (حواديتها)الخاصة بالارض والوطن ، لان هذه الحواديت تحمل ميدانا مباشرا لا يقل عمره عن مئات السنين كما تحمل ميراثا غير مباشر يعود الى آلاف السنين .. انها لا تزال تردد (الله يعيدنا الى بلادنا سالمين) (٩)،

وقد استعارت استعمالات وطنية لتضيف هدفا تربويا جديدا الى اهداف حواديتها في تربية الاطفال ، الا وهو هدف العودة الى الوطن الحبيب فلسطين يتمثل متشخصا في قولها (قطع الشاطر حسن مسافة ما بين القدس ويافا في لمح البصر)، ولا غرابة ان تنقل صور هذه الحواديت الى الوان مختلفة من ادب المقاومة الفلسطينية .

مثل من اللباس الشعبي الفلسطيني :

في اواخر عهد الانتداب البريطاني وبالنسبة للثوب الحريمي التلحمي الشعبي (نسبة الى بيت لحم) فان اشكال التطريز قد تطور تعبيرها في الحال الى الواقع الاجتماعي النضالي حيث كانت الارض الفلسطينية يغلى بركانها بعد اعلان مشروع التقسيم ١٩٤٧ مباشرة: فالزهرة في التطريز استبدلت بالقنبلة ، الورقة الخضراء اصبحت سكينا ، والحسون خنجرا .

وقبل ذلك وفي ثورة ١٩٣٦ لبس افراد الشعب دون استثناء الكوفية والعقال ، وكان توحيد الزي يدعو الى وحدة الصفوالى الالتزام بهذه الوحدة دون اسراف في كبت الحريات .

فلنحرص على جذور الفولكلور

كلمة اخيرة لا بد من قولها : ان الشخصية الفلسطينية باقية لا تريد لنفسها ان تنقرض فلنحرص على جذور الفولكلور التي تشير الى هذه الشخصية ، الولد والبنت يتحدثان بلهجتهما جيدا ، حتى لو ولدا خارج فلسطين ، قصة الوطن يفهماتها جيدا ، يقاتلان من اجلها في البيت ، الاكلات الفلسطينية كما هي ، يزهوان باللباس الوطني ، و(الدوشك) جنبا الى جنب مع (الكنبات) الحديثة ، اذا زاد عدد العائلات المتقاربة عن ثلاث واحكم بينها الجوار وجدت عدة الشاي وعدة القهوة منصوبة في شبه (ديوان) ، الصناعات الشعبية في مراكزها ما دام هناك فلسطينيون ، او انتقلت مع البعض الى حيث انتقل البعض ، وعلى سبيل الامثلة ولبس الحصر تقدم هذه الملاحظات :

(١) بدأت العادات الخاصة بالخيل والفرسان تخبو لابتعاد جمهرة الشعب العربي الفلسطيني بالهجرة عن مراكز الاعتزاز في الوطن في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، او بالنسبة لعدم توفر هدوء البال للذين بقوا فيه ، فلم تعد (البروكة) و (الكحيلة) وهي بعض اسماءالفرس الاصيلة ملازمة للفلسطيني ، وان بقي المثل (كعاب واعتابونواصي) متوارثا (١٠) .

(٢) واستمرت العادات المختصة بالقهوة السادة فيالتجمعات فقط لا سيما عند البدو حيث لا زالت (الحماسة) و (الملقط) و (البكرج) و (الفناجين البداوي) متوارثة ، ولكن هذه العادات خبت لدى الاسر المبعثرة خارج دائرة التجمعات الفلسطينية .

(٣) وفي قرى الوطن المحتل بقيت الاسواق الشعبية وتقاليدها متوارثة تشكل ركنا من اركان الاقتصاد الوطني المحدود والمحاصر من العدو الصهيوني وتنقل ما وسعها ان تنقل من معالم الفولكلور الفلسطيني وتبقي على ما شاء لها ان تبقي من هذه المعالم .

(٤) وخفت حدة العادات المرتبطة بالقتل والاخذ بالثار لدى الفلسطينيين لتمسكهم بمبادىء الثورة الفلسطينية بالرغم من ان العدو الصهيوني وحلفاءه شجعوا الابقاء على مثل هذه العادات .

(٥) وربما كانت عادات التعزية من اكثر العادات الفلسطينية منعاة الى عدم الضمور حتى في الاقطار المضيفة ألتي تضم اعدادا

قليلة من الفلسطينيين لما جبل عليه الشعب العربي الفلسطيني من حب التماسك والاعلان عنه .

(٦) ولكن بعكس ذلك العادات المرتبطة بالاحتفالات والاهتمامات الدينية الموسمية لان الاحتفال نفسه مرتبط بالبيئة الفلسطينية داخل الوطن وهذا شبه مفقود في المهاجر وان كان متوفرا داخل الوطن المحتل ، فنحن لن نسمع لعنا فلسطينيا في المهاجر يحتفل بسفر الحجاج الى مكة المكرمة مثل :

حجاج بيت الله
حجاج الله اعطاهم
حجاج طبخوا ونفخوا
حجاج عمروا وفرشوا
حجاج الله اعطاهم (١١)

او :

حجوا ونالوا مناهم
ويا سعدهم ويا هناهم (١٢)

وان كنا نسمعه في الاراضي المحتلة . اما تكريس الاحتفال بالمواسم الشعبية داخل الوطن المحتل فقد اختفى تماما نظرا لاحتلال العدو الصهيوني لمراكزها وحصار هذه المراكز بعيدا عن موطيء قدم عرب الوطن المحتل .

(٧) وبالنسبة لعادات اقتناء ادوات البيت والحلى الشعبية فانها ماضية الى الزوال بحكم تطور هذه الادوات وجنوحها نحو التغيير ونظرة النشء الجديد الى الاثاث الحديث والحلى باشكالها المتطورة ، غير ان الفلاح الفلسطيني داخل الوطن المحتل ، خاصة في المناطق الجبلية من الضفة الغربية لنهر الاردن ، لا يزال يعتز بها ، وهو يستعمل ويقتني اغلبها ، ولا بد من القول على اية حال ان الشاب الفلسطيني الذي لم يستعمل ادوات البيت الشعبية يقترب من تراثه كثيرا بوجدانه واحاسيسه اذا راى في اي معرض فلسطيني يقام نماذج من : السلطانية ، والباطية ، والمفرشة الخشب ، والبقاليل ، والطبلية ، والصاج ، والقدرة ، والقفة ، واللجن ، والانجرى ، والطوس ، والطابون ، والجاروشة .

كما ان البنت تطرب وتفخر برؤية نماذج حب اللبة والماشالله ، والكردان ، والخلخال وما اليها .

(٨) ولا بد ان نقف وقفة خاصة عند العادات الخاصة بالاكل ، لان هذه العادات ربما تنفرد بانها اكثر العادات ملازمة للعائلة الفلسطينية داخل وخارج الوطن المحتل ، فالاكلة الفلسطينية ، اسمها ، وتركيبها ، وكل تفاصيلها بقيت متوارثة تنقلها البنت عن امها والام عن الجدة وهكذا دون تبديل او تغيير في اية بقعة من العالم يتواجد فيها فلسطينيون ، ما دامت الظروف تساعد على ذلك .

(٩) ومع ان كثيرا من تفصيلات عادات الزواج قد تقلصت نسبيا في المهاجر مثل (الحنا) واحتفالها ، والاحتفال الشعبي بليلة العرس ، فان هذه التفصيلات بقيت في الوطن المحتل وبقي في ارض الوطن وخارجه الكثير من تقاليد فلسطين الخاصة بالمهر والشبكة والهدايا والسوقة (الموفدون لخطبة العروس) على اعتبار ان البنت الفلسطينية تعتبر نفسها ويعتبرها اهلها وريثة شعب ذي تقاليد لا بد من التمسك بها والاعلان عنها .

(١٠) وبالنسبة للطب الشعبي فهو في المهاجر يؤول الى التلاشي ولكنه يعمل به في الوطن المحتل ، وقد قال بعض الاخوة ان اسماء الادوية الشعبية في بعض الاقطار يختلف مدلول بعضها عما هو في فلسطين وقد احدث هذا بعض الالتباسات في استخدام الطب الشعبي كما ان بعض الاعشاب المستعملة في هذا الطب ليست بالضرورة متوفرة في كل مخيم حشد فيه الفلسطينيون ، وحتى في كل قرية او بلدة اقاموا فيها كلاجئين في الاقطار التي اوتهم ، وكمثل على ذلك يقول بعض الاخوة انه عندما طلب (البابونج) من (العطار) اعطاه (الشيح) ولكنه عندما طلب (زهرة البابونج) فيما بعد اعطاه (البابونج) المطلوب .

(١١) هذا بالنسبة الى دائرة العادات ، اما فيما يتعلق بدائرة الفولكلور المرتبط بالمعتقدات فان بقاءه لدى جمهرة الشعب دليل على اصالة الفولكلور الفلسطيني ذاته ، فالفلسطيني حتى في امريكا يتمسك بعاداته ومعتقداته حتى بتلك المرتبطة بالزمن ، والاحلام ويهتم بالاساطير الفلسطينية وامثولاتها كما هي في القدس وبيت لحم والناصرة والخليل وغيرها ، وحتى ما تنقله انجدة والجد من متعلقات السحر كما يفهمه الشعب . فهو ان رفت عينه اليمين تفاءل خيرا ، وان رفت عينه الشمال اوحى له ذلك بحضور غائب من سفر ، واذا حكته راحة يده اليمنى تنبأ بتسليم عاجل على ضيف او قادم من سفر ، فان كانت الحكة في يده الشمال انبأته بقبض مال في وقت قريب ، وهو يفسر احلامه فلسطينيا ، وهو يربط الطقس والخير والشر بامثولات الزمن ، كما انه يتحرى اساطير الخلق والتكوين والخوارق فلسطينيا ، ويقف عند المقدسات اذا حج اليها بعين بصيرة ولا يرى غرابة في ان تتحسس امه او زوجه راسه المصدوع وهي تقرأ قراءات دينية .

مطاوعة الفولكلور لفلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني

ونحن اذا اخذنا في الاعتبار ان الفولكلور يدعم الشخصية القومية للشعب الفلسطيني فان هذا يتبلور بوضوح تام في مطاوعة الفولكلور لفلسفة التربية للشعب الفلسطيني الثائر ، وتقوم هذه الفلسفة كما يقوم الفولكلور نفسه على ان الانسان جزء من الشعب الذي ينتمي اليه ، وترتكز هذه الفلسفة ايضا كما يرتكز الفولكلور على الروح الجماعية والاعتماد عليها والكفاح من اجلها ، وحب الشعب والثقة به ، وحب الوطن والثورة والثقة بالنصر ، ومن خلال اغاني العمل والعمال واناشيد الكفاح المسلح الشعبية من اجل تعاليم الثورة وهذا مطلب قومي ، كما يسخر الفولكلور في غرس المباديء والقيم الوطنية والثورية والتحرر من العصبية والقيم الفردية والقيم التقليدية السلبية .

وفي العودة الى تراثنا الاصيل من منابع الشعب ومناهله نكرس روح التفاؤل الثوري وروح حب المستقبل في النفوس في ظل مجتمع عربي فلسطيني يأبى بأنفه وكبرياء مدافعة على نفسه ان يندثر او يطويه الزمن ، كما نكرس ونغرس الجراة وروح التحدي في اطار العمل الجماعي والثقة في مواجهة المستقبل والاعتماد على النفس لدى الافراد والجماعات وتنمية القدرة على مجابهة التحدي بمختلف اشكاله ومستوياته .

واذا اضفنا الى هذا ان العودة الى تراث الشعب يعزز الارتباط العضوي بالارض والوطن في النشء الذي لم يعش في فلسطين ولم يرها ، فان ذلك يعمل على الهاب الخيال في تصورها وحبها والحنين اليها وان ذلك يعمل على ابراز الهوية النضالية للثورة الفلسطينية كجزء من الثورة العربية ، وارتباط الشعب الفلسطيني بالمجتمع العربي وبالنضال العربي تاريخا وحاضرا ومستقبلا كما يساعد ذلك على تنمية القدرات والاتجاهات والمهارات اللازمة لتحقيق التعبئة الشعبية .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٨٠ ـ

مركز عربي للمأثورات الشعبية
ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٥٣ ـ

الفولكلور واثره في المحافظة ..
ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٥٩ ـ

او تلخص نشاطه الميداني وتورد وتتابع كشوفه ومقتنياته ، وتعرض الدراسات والابحاث التي يقوم بها الخبراء والمتخصصون في المأثورات الشعبية العربية . وتبادل هذه الدورية مع ما تصدره المراكز الاخرى في العالم سيمنح الدارسين العرب واجيال المدربين مجالا افسح للدراسة والموازنة ، ومعرفة ادق لطبيعة المأثور الشعبي من ناحية ولقيمة التراث العربي من ناحية اخرى .

ب ـ اصدار كتب ونشرات ومجموعات صور ومدونات موسيقى ورقص وتبادلها ايضا مع الهيئات المتخصصة في الوطن العربي والعالم، ولهذه المطبوعات، فرق قيمتها العلمية والفنية ، تأثير اقوى في التعريف الحضاري بالشعب العربي ، ذلك لانها تعتمد على الوثيقة والنموذج ، والدراسة الايجابية ، وهو الاتجاه الذي تأخذ به دول اخرى عرفت مكانة المأثور الشعبي واستغلته لا في البيئات العلمية والفنية فحسب ، ولكن في مجالات السياحة والاقتصاد ايضا .

واذا استجاب هذا الجيل لحاجة الحياة الى رعاية الفنون الشعبية العربية وانشأ المركز التجريبي الخاص بهذه المأثورات ، فانه يكون بذلك ، قد اضاف الى علوم الاثار ، وما ادت اليه في الكشف عن الاصول الحضارية لامة العرب دعامة عظيمة تمنح الملامح الحية والوثائق الاصيلة للدراسات الانسانية والقومية .

القاهرة

مكتبة النوري
دمشق ـ تجاه البريد العام
وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .

لهذا كله يضع المخططون التربويون الفلسطينيون نصب اعينهم مبدأ رئيسيا لا حيدة عنه كلما خططوا وكلما امعنوا في الاهتمام بتربية اجيال فلسطين الجديدة المحررة الا وهو الاهتمام بالتراث الشعبي الفلسطيني (١٣) والعربي وتطور مختلف اوجهه وتنمية المواهب عند النشء والافادة منها في التعبئة والاعلام .

الهوامش

١ ـ في داخل الوطن المحتل نذكر (جمعية انعاش الاسرة) في مدينة رام الله التي تصدر مجلة (الاسرة والمجتمع) وهي مجلة فولكلورية فلسطينية وفي خارج الوطن المحتل نذكر على سبيل الامثلة مركز الابحاث في بيروت التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ونواة مركز فولكلوري ، وكذلك المركز الفولكلوري العراقي ببغداد الذي القى على عاتقه الاهتمام بفولكلور العرب .

٢ ـ الشرق الخالد تاليف عبدالحميد زايد ص ٢٨٦

٣ ـ الفتح القدسي ـ عماد الدين الاصفهاني طبعة ١٣٨١ القاهرة ص ٢٨١ .

٤ ـ مزيد من التفاصيل في كتاب (اوراق فلسطينية) معد للطبع بقلم كاتب هذه الدراسة .

٥ ـ مزيد من التفاصيل في مقال بعنوان : خمسون سنة من المقاومة في الفولكلور الفلسطيني ـ نمر سرحان مجلة شؤون فلسطينية عدد ١٨ ص ١٢٥ ـ ١٤٩ .

٦ ـ الوان من الاغاني الشعبية الفلسطينية ـ اسامة ناجي يوسف ، مجلة التراث الشعبي العراقية عدد ٢ ، ٣ سنة ٦ سنة ١٩٧٥.

٧ ـ للاطلاع على القصيدة كلها انظر مجلة (فلسطين الثورة) العدد ٨ السنة الاولى الصادر في ١٦ ـ ٨ ـ ١٩٧٢ الصفحة : ١٨ .

٨ ـ مزيد من التفاصيل في كتاب (اوراق فلسطينية) معد للطبع بقلم كاتب هذه الدراسة .

٩ ـ الحكاية الشعبية الفلسطينية ، نمر سرحان ـ المقدمة ، مجتمع القص في فلسطين ـ الساريسي ، مجلة التراث الشعبي العراقية عدد ٢ السنة الخامسة .

١٠ ـ تاريخ بئر السبع وقبائلها، عارف العارف عن الفروسية ص ١٢٢.

١١ ـ اوراق فلسطينية .

١٢ ـ قرية ترمسعيا « دراسة المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني » مركز الابحاث الفلسطيني الفصل العشرون ص ٢٣٣ .

١٣ ـ فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، اعداد قسم التخطيط التربوي التابع لمركز التخطيط لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٢ ص ٩ .